بـــدر[1]

١ ـ ما كاد يستقرُ أمرُ المهاجرين بالمدينة حتى عُقِدت أواصِرُ المحبة بينهم وبين الأنصار، فعاشوا بها إخواناً متآلفين، وجِيراناً متعاونين، غير أنهم لم يَنْسَوا ما حاق بهم من إيذاء خصومِهم بمكة، وما بَرِحُوا يتطلعون إلى نَشْرِ دينهم، ويستشرِفُون إلى وطنهم، ويَهِيمون بوَادِيهم الذي فيه نشئوا، ومن مائة شربوا، ومن هوائه تنفّسوا، وفيه أبناؤهم وأقاربُهم، وخؤولتهم وعُمُومتهم، وطرِيفُهم[2] وتَلِيدهم.

ورأى هؤلاء ـ الذين اضطرّوا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانَوْا من الاضطهاد، وما لاقَوا من الأذى ـ أن لا بدّ من التعرّض لتجارة قريش: في ذهابها أو رجوعها، حتى يحسَّ هؤلاء قوّتهم، ويَشْعُروا ببأسهم، وحينئذٍ يخافون على تجارتهم أن تَبُور، وقوافلهم أنْ ينقطعَ بها الطريق، فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحَن، ويُصَفُّوا ما بينهم من كَدَر، وينفسح المجالُ أمام المسلمين لنَشْرِ دينهم، والدعوة إلى عقيدتهم.

في السنة الثانية في الهجرة، بعث رسول الله عبد اللَّه بن جَحْش، ومعه جماعةٌ من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً، وأمره ألا ينظرَ فيه إلا بعد يومين من مَسِيره، فيَمْضِي لما أمره الله به، ولا يسْتكْرِه أحداً من أصحابه.

ويمضي عبد اللَّه في طريقه، وهو لا يعرفُ له وجهة، ولا يقصد إرَبَة[3]، ولكنه يندفع في سيره، طَوْعاً لأمر الله، وتنفيذاً لإشارته، ثقةً بالله، واطمئناناً إلى رأي رسوله ﷺ.

سار يومين كاملين، ثم فتح الكتابَ، فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامْضِ حتى تنزلَ نَخْلَة بين مكة والطائف، فترصَّدْ بها قريشاً، وتعلّم لنا من أخبارهم».

---

(١) بدر: ماء بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار.

(٢) الطريف: المستفاد من المال حديثاً ويقابله التليد.

(٣) الإربة: البغية.

وأعلن في أصحابه أمرَ الرسول، وقال لهم: أمرني رسول الله أنْ أمضيَ إلى نَخْلة، أرْصُد بها قريشاً، حتى آتيَه منهم بخَبر، وقد نهاني أنْ أستكرهَ منكم أحداً، فمنْ كان منكم يريدُ الشهادةَ، ويرغبُ فيها فَلْيَنْطَلِقْ، ومن كرِهَ، ذلك فليرجعْ، فأما أنا فماضٍ لأمرِ رسول الله ﷺ.

فاستجابُوا لدعوته، واستعدُّوا لمُعَاونته، وساروا جميعاً نحو غَرَضِهم الأسمى، تَدْفَعُهم الثقةُ بالله ورسوله، وتَحْدُوهم عناية الله، وتَشُدُّ من أزرهم قوّته، ولكن اثنين منهم ضلَّ منهما بَعِير، كانا يتعَقّبانه، فتخلّفا في طَلَبَه، فأسرَتْهما قريش.

ومضى عبد اللَّه وبقيةُ أصحابِه حتى نزل بنَخْلَة، ومرت به عِيرُ لقريش تحمِلُ تجارةً لهم، وما إن رأوْه، حتى فزِعُوا لتلك المفاجأة، ودُهِشُوا لهذه المقابلة، وتشاور أصحابُ عبد اللَّه فيما بينهم، فقال قائل منهم: والله لئن تركْتُم القومَ هذه الليلة ليَدُخلُنّ المسجدَ الحرام، فليمتنعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لنقتُلنَّهم في الشهر الحرام.

فتردَّد القوم وهابُوا الإقدامَ عليهم، وخافُوا أن يقاتلوهم، ولكنهم ما لبثوا أنْ أقدموا على الاشتباك معهم، وأجمعوا أخْذَ ما يحمِلونَ من مالٍ ونَشب.

التقى الخصمان، فرَمى وَاقِدُ بن عبد التميميّ عَمْرَو بن الحضرمي بسَهْمٍ فقتله، وأُسرَ عثمان بن عبد اللَّه، والحكم بن كيسان، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال، وخلص لهم ما جمعَوُا من تجارة.

٢ ـ أقبل عبدُ اللَّه بن جَحْش وأصحابهُ بالعِير وبالأسيرين، حتى قدمُوا بهما على رسول الله ﷺ في المدينة، فلما رآهم، وعلم أنه قد التقى الفريقان، فانهزم المشركون وفازَ المسلمون بالغَلبة والنَّصْر، قال: «**ما أمرْتُكم بقتالٍ في الشهر الحرام**».

ووقف العِيرَ والأسيرين، وأبى أنْ يأخذَ من ذلك شيئاً، حتى يفصلَ الله في أمرهما بحُكْمٍ، ويقضِيَ في شأنهما بِوَحي.

وسُقِط[1] في أيدي القوم، وظنُّوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا، وثارت ثائِرةُ قُرَيْش حين علموا بالتعرّض لتجارتهم، وإيذاء قومهم، وقالوا:

---

(١) مُسقط في يده: نَدِمَ وتحير.

قد استحَلَّ محمدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرام، وسفَكُوا فيه الدّمَ، وأخَذُوا الأموالَ، وأسَرُوا الرجال.

ولكنّ الله أنزل عن هؤلاء المجاهدين رحْمَتَه، وأظلَّهم بعطفه ورعايته، وأوحى إلى نبيه الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1].

فلما نزل هذا القرآنُ، وفرَّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفق[2]، سُرِّي عن أصحاب هذه السَّرية، وانقشعت غَيَاهِبُ الحزن عن تلك الفئة المقاتلة، وقبضَ رسول الله ﷺ العِيرَ والأسيرين.

ثم بعثت إليه قريش، تطلبُ منه فداءَ أسيريها، ولكنه أبى إلاّ أن يكونَ ذلك بردّ صاحبيه اللذين أسَروهما، وقال ﷺ: «**لا فداء حتى يقدمَ صاحبانا، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقْتُلْ صاحبيكم**».

فنزلوا على رَأيه، واستسلموا لشرطه، وَرَدُّوا إليه أسيرَيه، وَأتمَّ الله نعمته على المسلمين، وأنجز لهم وَعْدَه، إذ أيدهم بنصره.

أما عبد اللَّه بن جحش وأصحابه، فما تجلى عنهم ما كانوا فيه من الحزن، وانقشعَ ما غمرهم من اليأس، حتى طَمِعُوا في الأجْر، وتطلعوا إلى الثواب، فقالوا: يا رسول الله، أنطمَعُ أن تكونَ لنا غزوَة، نُعْطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[3].

بذلك انجابت أحْزَانهم، اطمأنت قلوبهم، وشاع السرورُ في نفوسهم، إذ غمرتهم نعمة الله، وأظلّتْهم رحمتَه.

كانت هذه السَّرية مفترقَ طرق في سياسة الإسلام، وأوّلَ دِعامة استقر بها نظامه، وقام عليها عِمَادُه؛ فيها أُجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) الشفق: الشفقة وهي الخوف من حلول مكروه.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢١٨.

كبير، ولكن هناك ما هو أكبَرُ منه، وهو الصَّدُّ عن سبيل، الله، ورَدُّ المسلمين عن دينهم بالوَعْدِ والوعيد، والخوف والتهديد، والكفر بالله، وإخراجُ أهل المسجد الحرام منه. . . وهذا هو ما ارتكبه المشركون، وما اقترفه أعداء المسلمين، لذلك شُرِعَ بعد ذلك قتالُ من يَصُدُّون عن دين الله، ويَفْتِنُونَ الناسَ عن عقيدتهم التي رسخت في نفوسهم، وتمكَّنَتْ من قلوبهم.

٣ ـ شعرت قريش بالحطِّ من كرامتها وعِزَّتها، والنَّيْل من يأسها وقوتها، إذ أُغير على أموالها، وقُتِلَ أبناؤها، وأسِرَ رجالها.

لذلك حاوَلُوا إثارة شِبْه الجزيرة كلِّهَا على محمد ﷺ وأصحابه: أن قاتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقَنَ المسلمون أنْ لم يَبْقَ في مُصَانعتهم[1] أو الاتفاق معهم رَجاء.

وكان يومٌ أخبر فيه النبيُّ المسلمين أن أبا سُفيَان بن حَرْب قد أقبل من الشام في عيرٍ لقريش، فيها أموالهم وتجارتُهم، ونَدَبهم[2] إليها، وقال لهم: «**هذه عيْرٌ لقريش فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُمُوها**»[3].

فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم لأنهم ما كانوا يظنُّون أن النبي يلقى حرباً.

أما أبو سفيان .فقد كان يتحسَّسُ الأخبارَ، ويتسَمَّع الأنباء، ويسألُ مَنْ لقيَ من الأعراب، تخوّفاً على تجارته، وحِرْصاً على أمواله، فأصاب خَبَراً منْ بعضِ الرُّكْبان: أن محمداً قد استنفر[4] أصحابه لكَ ولعيرك، فخاف العاقبةَ، وَحَذِرَ الأمر، وأراد أنْ يأخذ للأمر عُدَّتَه، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغِفَاري وأرسله إلى مكة، وأمره أن يأتيَ قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويُخْبرهم أنّ محمداً قد عرضَ له في أصحابه.

٤ ـ قال العباسُ بن عبد المطلب ـ ولقد لَقِيَ الوليدَ بن عُتْبة بمكة: إنّ عاتكة قد رأت رؤيا أفزعتها، ولما قصّتها عليَّ تخوفْتُ أن يدخل على قومكَ منها شرٌّ ومُصِيبة. . .

قال الوليد: وماذا رأت؟ قال: رأت راكباً أقْبَل على بَعِيرٍ له حتى وَقَف بالأبْطَح،

---

(١) المصانعة: أن تصنع لغيرك شيئاً ليصنع لك آخر مقابله.
(٢) ندب: دعا.
(٣) نفل فلاناً: أعطاه نافلة من المعروف.
(٤) استنفر بني فلان: استنجدهم.

ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انْفِرُوا يا لَغُدَر[١] لمصارِعِكم في ثلاث! ثم دخل المسجدَ والناسُ يتبعونه، فبينما هم حَوْله مَثَل[٢] به بَعِيرُه على ظَهْر الكعبة، ثم صرخ: ألا انْفِرُوا يا لَغُدَر في ثلاث! ثم مَثَل به بَعِيرُه على رأس أبي قُبَيْس[٣]، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخْرَةً فأرسلها، فأقبلت تَهْوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفّضَت فما بَقي بيتٌ من بُيوت مكة، ولا دارٌ إلا دخلها منها فِلْقَة، ها هي ذِي رؤياها، فاكتم عني ما أُحَدِّثك به... ولكن الوليد حدّث أباه بها وفشا أمْرُها حتى أصبحت حديث قريش في أنْدِيتها، ومثار الجدل في مجالسها.

وغدا العباسُ يطوفُ بالبيت، وأبو جهل في رَهْط من قريش قُعُودٌ يتحدثون برؤيا عاتكة أُخْتِه، فلما رآه أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فَرَغتَ من طَوافك، فأقبل إلينا.

فلما فرغَ جلس معهم، فقال له: يا بني المطلب، متى حدثت فيكم هذه النَّبية؟ قال العباس: وما ذاكَ؟ قال: تلك الرؤيا التي رَأتها عاتكة. قال: ما رأت؟ قال أبو جهل: يا بني المطلب، أما رَضِيتم أن يتنبَّأ رجالُكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمَتْ عاتكةُ في رؤياها أن راكباً قال انْفِرُوا في ثلاثٍ. فستتربص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ حقاً ما تقول، وإلا كُنتم أكذَبَ أهل بيتٍ في العرب.. فأنكر العباسُ أن تكونَ قد رأت شيئاً، ثم افترقوا.

وأمسى المساء فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس، وصِحْنَ به، فقلن له: أقررتُم لهذا الفاسق الخبيث أن يقعَ في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمَعُ؟ ثم لم يكن عندك غَيْرَةً لشيءٍ مما سمعْت؟

قال العباس: قد والله فعلتُ، ما كان منّي إليه مِنْ كَبِير، وأيْمُ الحقِّ لأتعرضَنَّ له، فإنْ عاد لأكفيكُنَّه.

وغَدَا إلى المسجد في اليوم الثالث من رُؤيا عاتكة، وهو حَدِيدٌ مُغضَب، يرى أنه

---

(١) غَدَر الرجل: نقض عهده وترك الوفاء به فهو غادر ويقال في أسلوب النداء فحسب: يا غُدَرُ للواحد كما يقال للجمع يا آل غُدَر.
(٢) مَثَلَ: قام منتصباً.
(٣) أبو قبيس: جبل شرف على تلة وجهه إلى قيقعان ومكة بينهما.

قد فاته أمرٌ يجبُ أن يُدرِكَه، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترِضُ له ليُعودَ لبَعْضْ ما قال فيَقَعَ به.

ولكنه رأى أبا جهل يَتَّجِه نحو باب المسجد؛ فظنّه قد فَرِق منه أن يُشَاتمه، ولكنه كان قد سمع صَوْتاً لم يسمعه، ورَنّ في أذنه صَدًى لم يَعْهَدْه، فشُغِل به، وخرج إليه.

٥ ـ كان ضَمْضمُ بنُ عَمْرو الغِفَاري رسولُ أبي سفيان قد وصل إلى مكة، ووقف على راحلته، وقد جَدَع[١] أنْفَ بعيرِه، وحوَّل رَحْلَه، وشقَّ قميصَه من قُبل ومن دُبُر، وجعل يَصيح: يا معشر قريش؛ اللَّطِيمة[٢] اللّطِيمة! أموالُكم مع أبي سفيان قد عَرَض لها محمد في أصحابه، ولا أرى أنْ تُدْرِكوها، الغَوْث الغَوْث!!

وشُغِل الناسُ بهذا الأمر، واجتمعوا يُجيلون قِداحَ الرأي، ثم أجمعوا على أن يتجهَّزُوا سِرَاعا، فكانوا بين رَجُلَين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوْعَبت قريش، فلم يتخلّف من أشرافها أحد، إلاّ أبا لهب؛ فقد بعث مكانَه مَنِ استأجره بأربعة آلاف دِرهم، كانت دَيْناً عليه.

ولما أجمعوا سَيْرَهم، وفرَغُوا من جِهازهم ذَكَرُوا ما كان بينهم وبين كِنَانة مِنْ إحَن، وما وقع بينهما من حُروب، وقال قائل منهم: إننا نخشى أنْ يأتُونا مِنْ خَلْفِنا، وكاد ذلك يثنيهم، ويَقْعُد بهم عن الخروج، ولكنَّ سُراقة بن مالك ـ وكان من أشراف كنانة ـ قال: أنا لكم جَارٍ مِنْ أن تأتيكم كِنانة من خَلْفكم بشيء تكرهونه. إذْ ذاك رجحَتْ كَـفّةُ رأي الدُّعَاة إلى الخروج، ولم يَبْقَ بمكة متخلِّف قادرٌ على القتال.

٦ ـ أما محمد فقد خرج من المدينة وأمامَه رَايَتَان سَوْدَاوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع الأنصار. وسار أصحابُه يتعاقبَون[٣] في الإبل، حتى إذا لَقِيَ رجلاً من الأعراب سأله عن الناس، فلم يَجدْ عنده خَبَراً، فواصَلُوا السير والسُّرى حتى إذا كانوا قريباً من الصفْراء[٤] بعث رسولُ الله مَنْ يتحَسَّس أخبارَ أبي سفيان بن حرب، وسار

---

(١) جدع: قطع أنفه أو طرفاً من أطرافه.
(٢) اللطيمة: عير تحمل المسك والبَزّ وغيرهما للتجارة.
(٣) تعاقب القوم في الشيء: تناوبوه.
(٤) الصفراء: وادي الصفراء من ناحية المدينة فوق ينبعُ مما يلي المدينة.

حتى كان بِذَفِران[١] نزل به، فأتته العيونُ تُخْبِره أنَّ قريشاً قد سارت إلى أبي سفيان، ليمنَعُوا عِيْرَه.

استشار النبيُّ أصحابه فيما عرض لهم من أمْر قريش، فقد تغَيَّر وَجْهُ الأمر، وصار أمام عدُوٍ لا بدّ أن يلتَحِمَ معه في حَرْب، ويشتبكَ معه في قتال...

قام المِقْدَاد بن عَمْرو، فقال: يا رسول الله، امْضِ لما أمَرَكَ الله، فنحن معكَ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذْهَبْ أنْتَ وربُّك فقاتِلا إنّا ههنا قاعِدون؛ ولكن نقول: اذهَبْ أنْتَ وربُّك فقاتِلاَ إنّا معكما مُقَاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ، لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغُمَاد[٢] لجَالَدْنَا معكَ مِنْ دونه حتى تبلُغه.

فقال له النبي خَيْراً، ودَعا له به. ثم قال ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيُّها الناس**» ـ وإنما يريدُ الأنصار ـ فقال سعد بن مُعاذ: والله لكأنك تُريدُنا يا رسولَ الله! قال: «**أجل**». قال: قد آمنَّا بك وصدّقناك، وشهِدْنَا أنَّ ما جئْتَ به هو الحق، وأعطيناكَ على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة، فامْضِ يا رسولَ الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البَحْرَ فخُضْتَه لخُضْنَاه معك، ما تخلّفَ منا رجلٌ واحد، وما نكره أنْ تلقى بنا عدوَّنا في الحرب، إنا لصبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، ولعلَّ الله يريك منا ما تقرُّ بِهِ عيْنُك، فسِرْ بنا، واستمدَّ العون والتوفيق من الله.

وما إنْ أتمَّ كلامَه، وانتهى من حديثه، حتى أشرقَ وَجْهُ الرسول، وشاع السرورُ في نفسه، ثم قال ﷺ: «**سيروا وأبْشِرُوا، فإن الله قد وعدني إحْدَى الطائفتين**[٣]**، والله لكأني أنظُرُ إلى مصارِعِ القوم**»! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بَدْر.

* * *

وبعث النبيّ بعض أصحابه إلى ماء بَدْر يتحسَّسُون أخبارَهم، فأصابوا رجُلَيْنِ يَسْتَقِيان لقُرَيش، فأتوا بهما وسألوهما: إلى أيْنَ يذهبان؟ وإلى أي قبيلة يَنْتَسِبان؟ وأيّ غَرضٍ يقصدان؟ فقالا: نحن سُقَاةُ قريش بَعَثُونَا نَسْقيهم من الماء، فكِرَه القومُ خَبَرَهما،

(١) ذَفِرَان: واد قرب وادي الصفراء.
(٢) برك الغُماد: موضع وراء مكة مما يلي البحر.
(٣) الطائفتين: العير أو النفير.

وقد رجوا أنْ يكونَا لأبي سفيان، فانْهَالُوا عليهما ضَرْباً، وأشبعوهما لَطْماً، فلما أذْلَقُوهما[١] قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

ولما رأى النبيُّ ﷺ ما كان من أصحابه ـ وقد كان يصلِّي ـ أقبلَ عليهم، يقول: «**إذا صدَقَاكم ضربتموهما، وإنْ كذَبَاكم تركتُموهما؟! صَدَقا والله، إنهما لقريش**».

ثم التفت إليهما يقول: «**أخبرَانِي عن قريش**»، قالا: هم والله وراءَ هذا الكَثِيب[٢] الذي تَرَى بالعُدْوة[٣] القُصْوى. فقال رسول الله: «**كم القوم**»؟ قالا: كثير. قال: «**ما عِدّتُهم**»؟ قالا: لا نَدري. قال: «**كم ينحرونَ كل يوم**»؟ قالا: يَوْماً تِسعاً، ويوماً عشراً.

فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «**القومُ ما بين التسعمائة والألفِ**» ثم أقبل على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألْـقَت إليكُم أفلاذ أكبادها**».

٧ ـ هذا أبو سفيان قد تقدم عِيرَه حَذَراً من أن يفاجِئَه أصحابُ محمد، ولما علم بمكانهم، وأفْضَت إليه عيونُه بمستور أمرهم، رجع إلى أصحابه سريعاً، وغيَّرَ وجْهة سيره، وجانب الطريقَ بعيره، وترك بَدْراً يَساراً، وانطلق حتى أفلت من محمد وأصحابه، واستخلص عِيْرَه من بين أظفارهم.

ولمَّا رأى أنه قد استخلص عِيْرَه، وأحرزَ تجارته، ونَجَا بأمواله، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيْركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجَوْت بها فارجعوا... فقال أبو جهل: والله لا نرجعُ حتى نَرِدَ بَدْراً فنقيم ثلاثاً فننحر الْجُزُرَ[٤]، ونُطْعِم الطعام ونَسْقِي الخمر، وتعزف علينا القيان[٥]، وتسمع بنا العَرَب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فَامْضُوا.

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه، ونقض حُجَّتَه، وقال لبني زُهْرَة، وكان حليفاً لهم: يا بني زهْرَة، قد نجت أموالكم، وخلص لكم صاحبكم، وإنما نفرتم

---

(١) أذلقوهما: أضعفوهما.
(٢) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.
(٣) العُدوة: شاطىء الوادي وجانبه.
(٤) جُزُر جمع جزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل. ويقال للبعير: هذه جزور سمينة.
(٥) القيان جمع قينة: وهي الأمَة صانعة أو غير صانعة وقد غلب على المغنية.

لتمنعوه ومالَه فارجِعُوا، فإنه لا حاجةَ لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعَة[١]، لا ما يقولُ هذا.

وقد كان الأخنَسُ فيهم مُطَاعاً؛ فلم يشهدها زُهْريّ واحد. ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوَة القصوى من الوَادِي.

وأسفَرَ الصباحُ، والمسلمون في انتظار مرور العيْرِ بهم، فإذا الأخبارُ تَصلهُمْ أنَّ أبا سفيان قد فاتهم، وأنَّ مُقاتلةُ قريش هم الذين ما يزالون على مَقْرَبَة منهم، فَذَوَى[٢] في نفوس جماعةٍ منهم الأملُ الذي كانوا يَنْعَمُونَ به، وجادل بعضُهم النبيَّ ﷺ كي يُعودوا إلى المدينة، ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم؛ فأنزل الله عليهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾[٣].

فأجمع المسلمون أن يَصْمَدوا للعدوِّ إذا اشتبكوا معه في القتال، وبادروا إلى ماء بدر، وبعث الله السماء فأصاب الواديَ ماءٌ، لَبَّدَ لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصابَ قريشاً منها ماء، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه. وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا جاء أدْنى ماء من بدر نزل به.

٨ ـ استقرَّ بهم المقام، فقال الْحُبَاب بن المنذر: يا رسول الله؛ أرأيتَ هذا المنزل أمَنزلاً أنْزَلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدَّمه، وألا نتأخر عنه أم هو الرأيُ، والحربُ، والمَكيدة؟!

قال النبي ﷺ: «**بل هو الرأيُ والجهاد**». قال: يا رسول الله؛ ليس هذا بمنزل، فانْهَضْ بالناس حتى نأتيَ أدنى ماء من القوم، فتنزله، ثم نُغَوِّرُ[٤] ما سِوَاه من القُلُبِ[٥] ثم نبني عليه حَوْضاً فنملؤه ماءً، ثم نُقَاتل القومَ، فنشرب ولا يشربون..

فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**». فساروا حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه، ثم أمر بالقُلُبِ فَغُوِّرَت ثم بَنَوْا حُوْضاً ومَلَئُوه ماء.

---

(١) الضيعة: العقار والأرض التي لها غلة أو التجارة بشكل عام.
(٢) ذوى: ضعف.
(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٧.
(٤) غَوَّر الماء: أذهبه في الأرض.
(٥) قُلُب جمع قليب: وهو البئر.

بنوا الحوض، وأخذوا عُدّتهم للقتال، وبينما هم يتحدثون ويتشاوَرُون تقدّم سعدُ بن مُعاذ قائلاً:

يا نبيّ الله؛ ألا نبني لكَ عَرِيشاً[1] تكونُ فيه، ونعدّ عندك رَكائبكَ، ثم نَلْقَى عدُوَّنا، فإن أعزّنا الله، وأظْهَرْنا على عدوِّنا، كان ذلك ما أحْبَبْنَا وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك؛ فلحقتَ بمَنْ وراءَنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوامٌ ـ يا نبيَّ الله ـ ما نحنُ بأشدّ لك حُبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تَلْقى حَرْباً ما تخلفوا عنك، يمنَعُك الله بهم، يُنَاصِحُونك ويجاهِدُون معك.

فأثنى رسول الله ﷺ على سعد ودعا له بخير، ثم بُني العريشُ للنبي، حتى إذا لم يكُن النصر في جانبه وجانب أصحابه، لم يقع في يد عدوه، واستطاع اللحاق بأصحابه بيثرب، يؤذِّنُ فيهم بدعوته، وينشر بين غيرهم من العَرَب دينه.

٩ ـ ونزلت قريشٌ منازلَ القتال، ثم بعثوا مَنْ يقُصُّ لهم خبرَ المسلمين، وجاء رائدُهم ينبئهم أن أصحابَ محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون، وليس لهم كمين ولا مَوْرِد، ولكنهُمْ مع ذلك قَوْم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم، ولا مَنَعَة لهم إلا إيمانهم الثابت، ويقينهُمُ المكين.

وداخَل الرعبُ قلوبهم، وخاف بعضُ ذُوِي الحكمة منهم أن يَقْتُلَ المسلمون كثرتهم، فلا تبقى لمكَّةَ مكانتُها؛ فقام عُتْبة بن ربيعة وقال: يا معشر قريش؛ إنكم والله ما تصنعون بأن تَلْقَوْا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجلُ ينظر في وَجْه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته! فارجِعُوا وخلوا بين محمد وسائر العَرَب، فإن أصابوه فذاكَ الذي أرَدتم، وإن كان غير ذلك لم نتعَرّض لما تكْرَهون.

وبلغت أبا جهل مقالَتُه، فاستشاط غَيظاً، وذكَّر القومَ بما بينهم وبين المسلمين من إحَن، وما فَشَا بينهم من عدَاوَة، وما وقع من دماء، فأعجل ذلك القتال. وتزاحَف الناسُ، والتقى الجمعان.

١٠ ـ وَرَأى رسول الله ﷺ كثرةَ أعْدَائه، وَوَفْرَة عُدَّتهم، فخرج إلى أصْحابه يشدِّدُ

(١) العريش: ما يستظل به.

من عزمهم، ويعدِّل صفوفهم، ويأمرهم ألاّ يحملوا عليهم حتى يأمْرَهم، وقال لهم ﷺ: **«إن اكتنفكم القومُ فَانضَحُوهُم[١] عنكم بالنَّبْل»**.

وعاد إلى العَرِيش معه أبو بكر، وهو أشدُّ ما يكون خوفاً من مَصِير أصحابه، وأكثرُ ما يكونُ إشفاقاً مما سيؤول إليه أمْرُ الإسلام والمسلمين.

ثم لجأ إلى الله يستمدُّ منه النّصر، ويَستَنْجِزهُ الوَعْدَ، وجعل يضْرَعُ إليه ويقول: **«اللهم هذه قريش قد أتت بخُيَلائها[٢] وفخرها، تحَادُّك[٣] وتكذِّبُ رسولَكَ. اللهم فنَصْرَك الذي وعدتني، اللهم إن تهلِكْ هذه العصابة اليومَ لا تعبَد»**.

وما زال يدعو ربَّه، باسطاً يدَه، مستقبلَ القِبْلَة، حتى سقط رِدَاؤه. وجعل أبو بكر من ورائه يرد على مَنْكبيه رداءَه ويُهيب به: يا نبي الله، بعضَ مناشدتك ربك! فإنَّ الله منجزٌ لك ما وعدك من النصر.

ولكن النبيّ ﷺ ظلّ فيما هو فيه من ضراعة إلى الله، واستغاثة بربّه، حتى أخذته سِنَةٌ، رأى خلالَها نَصْر الله؛ إذ أوحِي إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[٤].

فخرج النبيُّ إلى أصحابه يحرِّضهم على القتال، فقال: **«والذي نَفْسُ محمد بيده لا يقاتِلُهم اليوم رجلٌ فيقتل صابراً محتسباً، مُقْبِلاً غير مُدْبر، إلا أدخله الله الجنة»**. ثم أخذ حفنة من الحَصْبَاء، فرمى بها في وُجوهِ القوم، وقال: **«شاهتِ[٥] الوجوه»** ثم أمر أصحابَه، فقال ﷺ: **«شُدُّوا»** فازداد المسلمون قوة، وصاحُوا مهلّلين **«أحَد أحَد!»**.

وأمدّهم الله بالملائكة يُبشِّرونهم، ويَزْدادون بهم يقيناً وإيماناً؛ ووقف النبي وسط المَعْمَعة[٦] يُقوّي من عزيمتهم، ويشدُّ من أزْرِهم، ويبشّرهم بنصر الله لهم.

---

(١) نَضح القومَ بالنبل: رماهم ففرقهم.
(٢) الخيلاء: التكبر والعجب.
(٣) حَادَّ فلانٌ فلاناً: غاضبه وعصاه.
(٤) سورة: الأنفال، الآية: ٦٥.
(٥) شاه الشيء: قبح.
(٦) المعمعة: صوت الشجعان في الحرب.

١١ ـ ازداد المسلمون قوةً بتحريض النبي لهم، ووقوفه بين صفوفهم، وأمدّهم الله بملائكته؛ فأكثروا في قريش القَتْل والسّبْيَ[١]، وخاضوا وَطِيس المعركة؛ فثار النَّقْع[٢]، وامتلأ الجوّ بالغبار، وجعلت هامُ[٣] قريش تطِيرُ من أجسادها.

ورأى بلالٌ أميةَ بن خلف يَخْطِر في صفوف المقاتلين، ويسير وسط هؤلاء المشركين، وقد كان يُغْرِيه بمكة أن يتركَ الإسلام، فيخرجه إلى رَمْضَاء مكة إذا حمَيت، ويُضْجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضَعُ على صَدْره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارِقَ دينَ محمد، فيقول بلال: أحَد أحَد!

رآه بلال، فاقتحمتْه عَيْنُه، وأقبل نحوه. وقال: رَأسُ الكفر أمية بن خلف! لا نجوْتُ إن نجا. وحاول غيره أن يأسِرَه، ولكنه صرخ بأعلى صوته، وأقبل عليه بسيفه فأرْدَاه قَتيلاً.

١٢ ـ وتبدَّد الغبار، وانجلت المعركة عن جثث هامدة، وأشلاء متناثرة، وولّى أهل مكة الأدبار، كاسفاً بالهم، خُشَّعاً من الذلِّ أبصارُهم.

وأمر رسول الله بالقتلى أن يُطْرَحُوا في القُليب[٤]، ووقف عليهم، فقال: «**يا أهل القَليب، بئست العشيرةُ كنتمُ لنبيكم: كذّبتموني، وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونَصرني الناس، فهل وجدتُم ما وعد رُبكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربيّ حقّا**»!

فقال له أصحابه: يا رسولَ الله، أتنادي قوماً قد جَيَّفوا[٥]! فقال لهم: «**ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم؛ ولكنهم لا يستطيعون أنْ يجيبوني**».

وبينما النبيُّ في حديثه مع قومه في شَأنْ قَتْلى قريش إذا أبو حذيفة بن عُتبة كئيب قد تَغيَّر، فقال: «**يا أبا حُذَيفة. لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء**»؟ فقال: لا والله يا رسول

---

(١) السَّبي: الأسر.
(٢) النقع: الغبار الساطع.
(٣) هَامُ: جمع هامة، وهي الرأس.
(٤) القليب: البئر.
(٥) جَيَّفَت الميتة: أنتنت.

الله، ما شككتُ في أبي ولا في مَصَرعه، ولكنني كنتُ أعِرفُ من أبي رأياً وحلماً وفضلاً. فكنتُ أرجو أنْ يَهديَه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ما ماتَ عليه من الكفر، بعد الذي كنْتُ أرجو له ـ أحزنني ذلك!

فَطمْأنه الرسولُ، ودعا له بخير. وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها، وإلى الأسلابِ يمضُّون أشتاتها، وهم بِنصْر الله فرِحون، ولنعمَتِه شاكرون.

obeikandl.com

العتـب في الفـداء

عادت قريش يوم بَدْر كَسِيرةَ الفؤاد مقصوصةَ الجناح، يطأطىء الذلُّ هاماتِهم، ويَصْدَعُ[1] الأسى أكبادهم، ويأكَل الحِقْد لفائِفَ صدورهم، فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثارَ فيه النَّقْع، واشتبك القَنا، وتلاقت الأبطال بالأبطال، ثم تكشَّف القَتَام[2]، وتجلى اليومُ عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى؛ دَع الغنائم والأسلاب، والخيلَ والرِّكاب ولو أن أولئك القَتْلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عَامتهم ودَهْمائهم، أو صغارهم وسَوَادِهم، لهان الخَطْبُ وخفّ المصاب، ولكنهم ـ ويا بُؤْس لهم ـ فقدوا رؤوسهم وشُجْعانهم، وبَهاليلهم، وأعلامهم، فهم اليوم أشدّ ما يَرَوْنَ ذِلة، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً.

أما رسولُ الله ـ وقد عقد الله له النَّصْرَ، واختار له التوفيق ـ فقد أمر بالقتلى أن تلقى في القَلِيب أجسادُهم، وأن تُوارىَ بالتراب أشلاؤهم، وعَمَد إلى الغنائم فقسَّمها عَدْلاً، ووزعها إنصافاً.

وجاء دور الأسرى: ماذا يفعل بهم؟ وكيف سلوكُه معهم؟ وليس عنده ـ ﷺ ـ فيهم أمرٌ صَريح، أو حُكْم منزّل! عَمد إلى صحابته يستشيرهم، ويتعرَّفُ الصوابَ في ضوء آرائهم ـ وكذلك كان دَأبهُ ﷺ في كثير مما كان يعرِضُ له من أمورِ الحرب والجهاد ـ وإن كان أوفرهم عقلاً، وأنْفَذهم في المشكلات رَأياً، وأمضاهم في الحادثات عزماً ـ ليضعَ سُناً صالحة يَستنُّها ملوكُ الأنَام، ومن يكون بيدهم زِمامُ الأمور، والأحكام.

قال لهم ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟**». قال أبو بكر: يا رسولَ الله، قومك، وأهلك، اسْتَبْقِهِم وَاسْتَأنِ بهم، لعلّ الله يتوبُ عليهم، وَخُذْ منهم فِدْية تقوِّى بها أصحابك.

---

(١) صدع: شق.

(٢) القَتَام: الغبار الأسود.

وقال عمر: يا رسولَ الله، أَخْرجوكَ وكذَّبوكَ، اضرب أعناقهم، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكُفْرِ، وإنَّ الله أغناك عن الفداء.

فسمع رسولُ الله ﷺ رأييهما، وأصاخ إلى غيرهما، ولكنه دخل مَخْدَعَهُ، لم يُبْدِ رَأياً، ولم يتخذ حُكْماً.

واشْتَجَرَت[1] الآراءُ بين المسلمين، مِنْ قائلٍ يقولُ: إنه سيأمرُ بقتلهم... ومن قائل يقول: إنهُ سَيَفُكُّ إسَارَهم... وما هو إلاّ أن طلع عليهم فقال ﷺ «**إن الله ليُلِينَ قلوبَ رجالٍ فيه حتى يكُونوا ألْينَ من اللبن، وإن الله ليشدّ قلوبَ رجال فيه حتى تكُون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكْر كمثل إبراهيم حين قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾[2]. وإن مثلك يا أبا بكْر كمثل عيسى حين قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[3].**

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[4] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾[5] أنتم عالة، فلا يبقينَّ أحدٌ إلا بِفِدَاء أو ضَرْبة عُنُق».

وشاعَ في جَنَباتِ مكةَ وبين أندية قريش أنَّ محمداً قد أعلن في الأسرى أنه خيَّرهُم بين القتْل والفداء، فخفُّوا سِرَاعاً إلى المدينة، ودفَعُوا المال، وفكوا عن أسْرَاهم الأغلال.

* * *

وما انتهى رسول الله ﷺ من أمر هؤلاء الأسرى، حتى أوحى الله إليه يُعَاتِبُهُ في إيثَار الفِدَاء على القتل، إذ كان المسلمون ـ في بَدْءِ دولتهم ومطلع مُلكهم ـ حاجتُهُمْ إلى إذلالِ عدوِّهم بالقتل أشدّ، ليعظُمَ شأنهُمْ، ويعلو في الأرض سلطانهُمْ، وتستقرّ في نفوس

(١) اشتجر القوم: تخالفوا وتنازعوا.
(٢) سورة: إبراهيم، الآية: ٣٦.
(٣) سورة: المائدة، الآية: ١١٨.
(٤) سورة: نوح، الآية: ٢٦.
(٥) سورة: يونس، الآية: ٨٨.

الأعداء هيبتهُم، وتضعف شوكةُ أعدائهِم، وهم في عُـنْفوَان قوتهم وكثرتهم، أما المال فهو نَـفْعٌ عرضيٌّ ومرتبةٌ ثانية بعد إضعاف العدوّ بالقتل.

على أنه سبحانه وتعالى جرت سُنّتُه، واقتضت رحمتُه وحكمتُه ألا يؤاخذَ مُجْتهداً وإن أخطأ، ولا مُتَأَوِّلاً وإن أضله رائدُ التوفيق، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ[1] فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ[2] مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[3].

(١) يثخن: يبالغ في قتل الكفار.

(٢) عن ابن عباس في قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾: يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى لكم.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٧ و٦٨.